عبرة العمل في قصة موسى وشعيب عليهما السلام

من عبر القصص القرآني الذي أكرم الله به هذه الأمة: ما نجد في سورة القصص من حديث شعيب وموسى عليهما السلام.

فلقد جاءت الآيات في سورة (القصص) على واقعة ما حدث لموسى عليه السلام عندما ورد ماء مدين، وكيف سقى لابنتي شعيب وهو لا يعرفهما، وكان ذلك منه شهامة أخذت حقها من التقدير؛ لأنهما لا تسقيان حتى يصدر الرعاء وأبوهما شيخ كبير.

وساقته المقادير إلى شعيب عليه السلام ملبياً دعوته إلى داره حيث أراد أن يجزيه أجر ما سقى لبنتيه، وكان من بعدُ ما قصَّه علينا القرآن الكريم من واقعية نظيفة في التعامل أصبحت من المعالم الخيرة في كتاب الله، حيث يتلو التالي تصويراً لحقيقة ما جرى بين نبيين من أنبياء الله، وهي حقيقة مثقلة بالعبرة الهادية التي تنير السبيل وتخرج بالإنسان إلى جو أرحب في عبر التاريخ، والتفهُّم لطبيعة الحياة، مصحوباً ذلك بتبين ما لأخلاق المتعاملين بعضهم مع بعض من أثر في حفظ الحقوق وصيانة العلاقات الاجتماعية من العبث. واستمرار الألفة والوئام.

قال الله تبارك وتعالى على لسان شعيب يخاطب موسى عليهما السلام: ﴿قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [القصص: ٢٧].

لم يجد شعيب غضاضة في أن يعرض على موسى الزواج بإحدى ابنتيه اللتين كانتا تذودان ـ تمنعان أغنامهما عن الماء ـ، بعد أن رأى فيه القوة والأمانة، وسمع منه قصة خروجه من بلده إلى مدين بعد أن ائتمر به القوم ليقتلوه. والمهر المطلوب ـ كما هو صريح الآية الكريمة ـ: أن يرعى موسى غنم شعيب ثمان سنين وإن أتم عشراً فمن عنده.

وإذا كان العمل مكرمة وعنوان رجولة، فماذا على موسى أن يقبل هذا الزواج ويوافق على هذا المهر؟ إنها منه عليه السلام ـ وهو رسول من رسل اللَّه ـ صورة إيجابية لحياة من يختارهم اللَّه لحمل رسالته، وإن كان ابتلاء موسى بالقوم الغارقين في غضب اللَّه ولعناته المتتابعة: على غاية الشدة في الابتلاء.

ونقرأ في جواب موسى قول اللَّه جل وعز: ﴿قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾[القصص: ٢٨] .

ولقد رافق العملَ الأمينَ عنصرٌ خلقي كريم؛ فعلى الرغم من أنه لم يلتزم بعشر سنوات لكنه قضى هذا الوقت كله في رعي غنم شعيب عليه السلام.

فقد روى البخاري عن سعيد بن جبير قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أيَّ الأجلين قضى موسى عليه السلام؟ قلت: لا أدري حتى أقدَم على خير العرب فأسأله، فقدمت فسألت ابن عباس رضي اللَّه عنهما فقال: قضى أكثرهما وأطيبَهما، إن رسول اللَّه ﷺ إذا قال فعل. قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري»: (كذا رواه سعيد بن جبير موقوفاً وهو في حكم المرفوع؛ لأن ابن عباس كان لا يعتمد على أهل الكتاب).

وبعد: فإن هذا المعلم القرآني الذي يأخذ حيِّزه في جانب من جوانب قصة موسى مع شعيب يؤصل لتكريم العمل والعاملين، ويرسم لأمتنا واحداً من خطوط مسارها في بناء المجتمع وتنميته وازدهاره.

أن يكون حديث العمل مرتبطاً برسول من رسل اللَّه، أن يكون الذي يأجر نفسه عشر حجج كوامل يرعى فيها الغنم، واحداً من هؤلاء المصطفين الأخيار: مؤشرٌ عميق الدلالة على طريق العمل والبناء، وإذا كانت هذه الأمة مدعوة لأن تفيد من تاريخ موسى مع بني إسرائيل الذين ابتلاه اللَّه بهم ورأى من شرورهم وآثامهم ما يشيب له الوليد، فإن في هذا التعامل بينه وبين شعيب عليهما السلام ما يعطي دروساً في الواقعية والإيجابية وإعلاء شأن العمل والعاملين تستوقف الناقد البصير.

ألا إن أمة أكرمها الله بكتاب يحوي بين دفتيه حديث الأمم الغابرة وتاريخ المرسلين، جديرة أن توليَ موطنَ العبرة في القصص القرآني كبير اهتمامها.

وكلما ازداد وعي الأمة لمفهوم اليقظة والبناء والقوة، كانت أقدر على استلهام العبر ووضعها على طريق التنمية والازدهار.

ها نحن نرى في قصة موسى مع شعيب عليهما السلام صدق اللَّهجة، وإيجابية التصرف، وواقعية النظرة إلى الحياة، وسلامة المقاييس التي تقاس بها الكفاءات.

ورأينا بعد ذلك كله ـ كما أسلفت ـ قدر العمل الذي يقوم به واحد من رسل الله. والعمل يمثل واحداً من أهم مرتكزات البناء والتنمية، وهو عند أهل الإيمان قائم ـ مع التجويد والأمانة ـ على العقيدة والمعرفة، مصاحب لكريم الخلق والحرص على مرضاة رب العالمين.

وقبل هذا وبعده: لا بد أن نذكر قوله تعالى على لسان إحدى ابنتي شعيب: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

لقد اجتمع لموسى ـ وهو من أولى العزم من الرسل ـ القوة في إتقان ما يوكل إليه من العمل وتجويده، والأمانة التي لا بد منها في الحفاظ على ما به يؤتي العمل ثماره المطلوبة.

وفي ذلك عبرة مكينة لأهل الصلاح والإصلاح في أن يعملوا على تربية الأجيال المسلمة على هذا السنن المفضّل، فيجمع الإنسان المنوط به الإسهام في استئناف مسيرة الأمة الخيرة نحو القوة الذاتية والتمكين إن شاء الله: بين الكفاية المطلوبة في أي تخصص وأي مجال، وبين الأمانة في الأداء، مراقبة لله قبل المراقبة للعباد، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.